الرحمة

وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه من خلال

السنة النبوية الصحيحة

إعداد:

محمد أنور عز الدين علي الشيباني

مقدمة

الحمد لله على جميل فضله، والشكر له على كريم عدله، والفضل له وحده لتوفيق المؤمنين لمعرفته والإيمان به، رحمة منه سابغة عليهم، وكمالا لغناه عنهم، يرحمهم وهو مستغن عنهم، فله وحده المن والفضل، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، أكمل الخلق رحمة، أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكان بأبي هو وأمي ونفسي رحمة للعالمين، وبعد:

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالي أن يمتحن عباده برسالاته، وهذا من كمال رحمته بهم، فلا يعرض أحد لثواب ولا عقاب، إلا بعد أن يمتحنه، فإما أن يستجيب فينجو، وإما أن يعرض فيهلك؛ ولهذا كانت رسالة الإسلام وبعثة النبي العدنان صلي الله عليه وسلم رحمة للعالمين، قال تعالى (وما أرسلناك إِلّا رحمةً لِلعالمين): [الأنبياء 107] : ، فالإسلام دين عقيدة ورسالة وسلوك، وأركان الإسلام مبنية على هذه العناصر الثلاثة، ورسالة الله لعباده لرحمتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فصاروا بفضله ورحمته موحدين، بعد أن كانوا مشركين، وصاروا بفضله ورحمته طائعين بعد أن كانوا عاصين، وصاروا بفضله ورحمته مصلحين بعد أن كانوا مفسدين.

وعند التأمل فإن الرحمة معنى لطيف في الإنسان، جانب منه يفطر عليه طبيعة، وجانب آخر يكتسب بتهذيب الديانة، ومن لطائف مسائل الباب، أن هناك علاقة بين اتساع القلب لهذا المعنى الجليل، وبين استجابته لأوامر التنزيل، وليس هذا من جانب الصُّدف، ولا تكلف في العلم من غير هدف، بل هو التأمل للنصوص، والغوص في معانيها، وتلمس مقاصدها، ولا شك أن هذا يتمثل حقيقة في شخص بشري، وهو جناب الرسول النبي صلي الله عليه وسلم وسنته صلي الله عليه وسلم غاية في تمثل الرحمة بالخلق، وهو أكمل وصف للمؤمنين،

تجسّد في قوله تعالى: (لقد جاءكُم رسُولٌ مِن أنفُسِكُم عزِيزٌ عليهِ ما عنِتُّم حرِيصٌ عليكُم بِالمؤمِنِين رءُوفٌ رحِيمٌ) [التوبة:128]، وكمل إيمانه بقوله صلي الله عليه وسلم: "أما والله، إِنِّي لأتقاكُم لِلهِ، وأخشاكُم لهُ" [1]، وقوله: "قد علِمتُم أنِّي أتقاكُم لله، وأصدقُكُم، وأبرُّكُم" [2] فكان شرعًا للحكيم الخبير، لأن يرحم من يرحم، فرأيت أن هناك علاقة بين رحمة المرء وإيمانه، بل إن الأمر يتوقف عليه الإيمان زيادة ونقصًا، واقتصرت على دراسة المسألة من السنة النبوية الشريفة، سائلا المولى جل في علاه التوفيق والسداد، وهو وحده ولي ذلك والقادر عليه.

وسنة النبي صلي الله عليه وسلم القولية منها والفعلية تفيض بالشواهد على هذا، بل إن أصل الرسالة المحمدية هو رحمة من الله لعباده، فكانت أصلا لكل خير جاء به عبد، يرحم نفسه فينجو، ويرحم غيره فينجو ويُنجي، ولعل من أبرز من وقفت عليه جمع مادة الموضوع شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (ت 953 هـ)، في كتابه: الأربعين في فضل الرحمة والراحمين.

ولعله من المناسب تفصيل المسألة؛ لأنها متشعبة بين مسائل الاعتقاد والسنة النبوية، وهي مسألة دقيقة، يتحرى الباحث من خلال الخوض فيها الوقوف على دقيقة، طالما دارت في نفسه، فتناغم ما كان في نفسي مع بعض محاور المؤتمر الأول عن الرحمة، الذي تنظمه مشكورة مأجورة جامعة الملك سعود رحمه الله، وهو المحور الأول: تأصيل خلق الرحمة في الإسلام، في بندها الثاني وهو: (الرحمة في السنة النبوية)، أهدف من خلالها إلى تسليط الضوء على عظيم مكانة الرحمة، وعلاقتها بزيادة الإيمان ونقصانه، انتهجت فيها المنهج التحليلي، وهذا شرف

([1]) أخرجه مسلم في الصحيح، في كتاب الصيام، باب بيان أن القُبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، برقم (1108) (779/2)، من حديث أم سلمة رضي الله عنه.

([2]) أخرجه البخاري في الصحيح، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب نهي النبي صلي الله عليه وسلم على التحريم إلا ما تعرف إباحته، وكذلك أمره، برقم (7367) (112/9) ، ومسلم في الصحيح، في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، برقم (1216) (883/2)، من حديث جابر رضي الله عنه.

عظيم لمثلي على قلة بضاعته، أن يسهم بإثراء فكرة المؤتمر وموضوعه، عسى الله تعالى أن يعفو عني ويرحمني، فذلك رجائي ومأمولي، فبدا لي جمع هذا الجمان، ونظم هذا الزّبرجد في عقد فريد، وخطة ثنائية، على النحو الآتي:

المبحث الأول: منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة النبوية الصحيحة:

المطلب الأول: رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة.

المطلب الثاني: إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة.

المبحث الثاني: آثار الرحمة في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها من الآثار الصحيحة:

المطلب الأول: الإشارات النبوية لزيادة الإيمان ونقصانه، وعلاقته بالرحمة.

المطلب الثاني: دراسة تحليلة تطبيقية لحديث النبي صلي الله عليه وسلم: "أتاكُم أهلُ اليمنِ، هُم ألينُ قُلُوبًا، وأرقُّ أفئِدةً"

الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

منزلة الرحمة وأثرها على العقيدة من خلال السنة النبوية الصحيحة

كتب الله سبحانه وتعالي على نفسه الرحمة، قال تعالى: (قُل لِمن ما فِي السّماواتِ والأرضِ قُل لِلّهِ كتب على نفسِهِ الرّحمة) [الأنعام:12]، فرحمته شملت الموجودات كلها، وبها قامت السموات والأرض ومن فيهن، فقد وسعت كل شيء، والرب وسع كل شيء رحمة وعلمًا، فوصلت رحمته إلى حيث وصل علمه، فليس موجود سوى الله سبحانه وتعالي إلا وقد وسعته رحمته وشملته، وناله منها حظ ونصيب، ولكن المؤمنون اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها، والكفار

(.اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها صرف الرحمة إلى غيرهم [1].

المطلب الأول

رسالة الدين للبشرية رسالة رحمة

لا شك أن أعظم رحمة رحم الله سبحانه وتعالي عباده هي رسالة آخر الأنبياء، وأعظم البشر، سيدنا ونبينا محمد صلي الله عليه وسلم قال تعالى: (وما أرسلناك إِلّا رحمةً لِلعالمِين) [الأنبياء: 107]، فأصل الرسالة رحمة العالمين، وكل فروعها وتشريعاتها منبثقة عن هذا الأصل العظيم، فليس من الغرابة أن تكون هذه الرحمة سببًا لدخول جنة الله تعالى، وكسب رضاه.

([1]) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص(260)

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: "إِنِّي لم أُبعث لعّانًا، وإِنّما بُعِثتُ رحمةً" [1]. وفي غير الصحيح، قال صلي الله عليه وسلم:" يا أيُّها النّاسُ، إِنّما أنا رحمةٌ مُهداةٌ" [2].

وهذا غاية في الظهور؛ إذ المقام مقام انتقام وتشفي، فهؤلاء المشركون آذوه في نفسه وأصحابه، ولكنه صلي الله عليه وسلم رحمة مهداة للعالمين، فلا يصدر عنه إلا ما يوافق ذلك، فرسالته صلي الله عليه وسلم أعظم رحمة؛ إذ لا يتصور خير إلا بها والخير كل الخير في اتباعها، فاللهم لك الحمد على نعمة الإسلام، والله نسأل أن يثبتنا على دينه حتى نلقاه.

ومن لطيف ما وقفت عليه شاهدًا على ذلك من حديث جابر رضي الله عنه، قال: لما رجعت إِلى رسولِ الله صلي الله عليه وسلم مُهاجِرةُ البحرِ، قال: "ألا تُحَدِّثُونِي بِأعاجِيبِ ما رأيتُم بِأرضِ الحبشةِ؟" قال فِتيةٌ مِنهُم: بلى، يا رسُول الله بينا نحنُ جُلوُسٌ مرّت بِنا عجُوز مِن عجائزِ رهابِينِهِم، تحمِلُ على رأسها قُلّةً مِن ماءٍ، فمرّت بِفتًى مِنهُم، فجعل إِحدى يديهِ بين كتِفيها، ثُمّ دفعها فخرّت على رُكبتيها، فانكسرت قُلّتُها، فلمّا ارتفعتِ التفتت إِليهِ، فقالت: سوف تعلمُ يا غُدرُ إِذا وضع اللهُ الكُرسِيّ، وجمع والأولين والآخرِين، وتكلّمتِ الأيدِي والأرجُلُ، بِما كانُوا يكسِبُون، فسوف تعلمُ كيف أمرِي وأمرُك عِندهُ غدًا، قال: يقُولُ رسُولُ الله صلي الله عليه وسلم: "صدقت،

([1]) كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم (2099) (2006/4).

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (10548) (408/13) والحاكم في المستدرك، برقم (100) (91/1)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعًا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول"، ووافقه الذهبي .وصححه الألباني. السلسلة الصحيحة (882/1)

صدقت، كيف يُقدّسُ الله أُمّةً لا يُؤخذُ لِضعِيفِهِم مِن شدِيدِهِم ؟" [1] (يقدس الله) أي: يطهرهم من الدنس والآثام.[2] ويالله ما أعجب هذا؛ فقد جاءت السنة مصدّقة لهذه العجوز الحبشية، وهي لم تر النبي صلي الله عليه وسلم ولم يرها، إلا أن شاهدنا في أن رسالة النبي صلي الله عليه وسلم جاءت بالناموس الإلهي، الذي يرحم الضعيف، ويأخذ له من القوي حتى يرضى، وأن ذلك حقيق بأن يرضي الجبار في علاه، وإذا تسلط القوي على الضعيف، وانعدمت الرحمة في القلوب، ولم ينتصف لأصحاب الحقوق حل بالأمة السخط، فكيف يقدسها الله سبحانه وتعالى، وقد ضيعت حقوق ضعيفها، وانعدمت الرحمة بينها.

المطلب الثاني

إضاءات نبوية على عقيدة المؤمن وتأثرها بالرحمة

عندما تأملت في سنة النبي صلي الله عليه وسلم وجدتها مليئة بشواهد رحمته بأمته، وعظمة شفقته بالعالمين، تحقق فيه وصف ربه: (هُو الّذِي يُصلّي عليكُم وملائِكتُهُ لِيُخرِجكُم مِن الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ وكان بِالمؤمِنِين رحِيمًا (43)) [الأحزاب: 43]، ولكن منهجية البحث تقتضي التركيز على جزئيته، وإبراز مسألته، وهي علاقة الرحمة بالعقيدة.

([1]) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (4010) (1329/2) وابن حبان في الصحيح، كتاب القضاء، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من معونة الضعفاء وأخذ مالهم من الأقوياء، برقم (5058) (443/11) قال الألباني: صحيح لغيره". التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (342/7)

([2]) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (486/2)

شعب الإيمان وعلاقتها بالرحمة:

الحديث عن الإيمان مرتبط أصالة بالوحيين، ودرجته في القلب الذي هو محله لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالي، وقد جاءت السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بما يدل على سمو أصحاب القلوب الرحيمة، وعلو منزلتهم، وهي رفعة حسية ومعنوية في حينٍ، ولكي يظهر لنا هذا المعنى ابتداءً ننظر في كلام المعصوم، حيث قسّم الإيمان إلى شعب، وذكر لنا طائفة منها في حديث أبي هريرة المتفق عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم "بالإيمانُ بِضعٌ وسبعُون -أو بِضع وستوُّن -شُعبة، فأفضلهُا قول لا إله الا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عنِ الطّرِيقِ، والحياءُ شُعبةٌ مِن الإيمان" [1] (شعبة) خصلة، والشعبة واحدة الشعب، وهي أغصان الشجرة، وهو تشبيه للإيمان وخصاله بشجرة ذات أغصان، لا تتكامل ثمرتها إلا بتوفر كامل أغصانها و (الحياء) صفة في النفس تحمل على فعل ما يحمد، وترك ما يذم عليه ويعاب [2]

يقول ابن رجب: ‘‘فأشار إلى أن خصال الإيمان منها قول باللسان، ومنها ما هو عمل بالجوارح، ومنها ما هو قائم بالقلب، ولم يزد في شيء من هذه الروايات على هذه الخصال .’’وقال- أيضًا‘‘ :-أهل الحديث والسنة عندهم أن كل طاعة فهي داخلة في الإيمان، سواء كانت من أعمال الجوارح أو القلوب أو من الأقوال، وسواء في ذلك الفرائض والنوافل، هذا قول الجمهور الأعظم منهم [3]

([1])أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (9) (11/1) ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (58) (63/1).

([2]) ينظر: تعليق مصطفى البغا على البخاري، (11/1)

([3]) فتح الباري (34,33/1)

وقال ابن حجر: ''قوله شعبة بالضم أي قطعة، والمراد الخصلة أو الجزء، قوله: والحياء .هو بالمد، وهو في اللغة: تغير وانكسار، يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه، وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر: "الحياءُ خيرٌ كُلُّهُ" [1] فإن قيل: الحياء من الغرائز، فكيف جعل شعبة من الإيمان؟ أجيب بأنه قد يكون غريزة، وقد يكون تخلقًا، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزًا عن فعل المعصية، ولا يقال رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير؛ لأن ذاك ليس شرعيًا، فإن قيل: لم أفرده بالذكر هنا؟ أجيب بأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ المحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر، والله الموفق [2] ويا له من كلام موفق، تأملته مرارًا، واعتنيت به تكرارًا، فبلغت منه إلى مأربي، فلا مزيد عليه .وقد ذكر رحمه الله أن ابن حبان اجتهد في عدّ هذه الشعب وقسمها إلى ثلاثة أقسام، وعد من أعمال القلب أربعًا وعشرين خصلة، وجعل الرحمة منها، ومن أعمال اللسان سبع خصال، ومن أعمال البدن ثمان وثلاثين خصلة .وعلى هذا فإن أعمال القلب وحده تتصدر بقية الشعب عظمة وعدًّا، التي منها الرحمة.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحًا ما قاله الشيخ ابن سعدي: ''وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته، وهو قول لا إله إلا الله اعتقادًا، وتألهًا، وإخلاصًا لله، وبين أدناه، وهو إماطة العظم

([1]) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (60) (64/1). وعنده- أيضًا -بلفظ: ''الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ وعندهما – الشيخان – بلفظ الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي بِخَيْرٍ" البخاري، كتاي الأدب، باب الحياء، برقم (6117) (29/8) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

([2]) فتح الباري(52/1).

والشوكة وكل ما يؤذي عن الطريق، فكيف بما فوق ذلك من الإحسان .وذكر الحياء- والله أعلم -لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح، كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب- المذكورة في هذا الحديث -هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة .وهذا- أيضًا -صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه .ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتا كثيرًا .فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى" [1]

والذي خلصت إليه بعد تأمل: أن خصال الإيمان وشعبه، كثير منها ينبع من الرحمة، إما بالنفس، وإما بالخلق، وأعني بالخلق كل ما عدا النفس من خلق الله سبحانه وتعالي، فالكون والأرض والسماء والنبات والدواب والجن والإنس، كلهم يدخل في هذا، فمن يتصور إزالة شوكة من طريق الناس، إلا وهو يرحم من يتأذى بوخزها، ومن يتصور رفع غصن اعترض ممشى البشر والدواب، إلا وهو يرحم الخلق من تعثرهم به، ومن يتصور إطعام قطة، إلا وهو يرحمها من جوعة تؤذيها، وقد تميتها، وشعبة الحياء كذلك، فهي تستجمع خصال الرحمة والشفقة بالخلق، فتتولد هذه الصفة، بل وينتج عنها كل ما هو خير.

فإذا كانت الشعب تتفاوت في درجاتها، فإن تحصيل الشعبة الواحدة كذلك تتفاوت في درجاتها، فأهل الإيمان يتفقون أن من كمل إيمانه كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، هو أفضل من أدى حق لا إله إلا الله، وهي أفضل شعب الإيمان، فكان لازمًا القول: إن أبا بكر الصديق هو أفضل الأمة؛ لأنه أفضل من حقق التوحيد، وهكذا بقية الخصال، فمن حقق خصلة الرحمة، وبلغ الغاية في تحصيل معناها الشرعي، فإنه بلا شك يكون أفضل

(1) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص (58)

ممن هو دونه في تحصيل ذلك، وهذا ما سيظهر تباعًا في تتبع الأدلة الشرعية، من السنة المرضية، والفضائل السنية، والطرائق السلفية.

ومن أعظم شواهد ذلك: أن المرء يرحم رحِمه، وذويه، ويرحم العامة، فيكون ذلك سببًا في دخوله الجنة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه قال" "لن تُؤمِنُوا حتّى تحابُّوا، أفلا أدُلُّكُم على ما تحابُّوا عليهِ؟" قالُوا: بلى يا رسُول الله .قال أفشُوا السّلام بينكُم تحابُّوا، والّذِي نفسِي بِيدِهِ لا تدخُلُوا الجنّة حتّى تراحمُوا" قالُوا: يا رسُول الله كُلُّنا رحِيمٌ .قال: "إنّهُ ليس بِرحمةِ أحدِكُم ولكن رحمةُ العامّةِ، رحمةُ العامّةِ " [1] وفي رواية عند البيهقي "لا يدخُلُ الجنّة مِنكُم إلا رحِيمٌ " قالُوا: يا رسُول اللهِ، كُلُّنا رحِيمٌ .قال: "ليس رحمةُ أحدِكُم نفسهُ وأهل بيته حتّى يرحم النّاس" [2]

فرحمة العامة سبب لدخول الجنة، وليت شعري إنها مسألة غائبة عن الكثيرين، وتلك الرحمة تنبع من محلها وهو القلب، وهو محل الإيمان، فإن امتلأ الوعاء رحمة، نبع بالإيمان، فأثر في كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، ولعمري كم من عبادة صبغها صاحبها بغلظة كدرت صفوها، ولعلها أذهبت أجرها كاملا، أما رأيت أن النبي صلي الله عليه وسلم: رأى عمر رضي الله عنه يطوف البيت، فقال له: " يا عُمرُ إِنكّ رجُلٌ قوِيٌّ، تزُاحِم على

([1]) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب القضاء، باب حكم الحاكم في داره، برقم (5928) (414/5) والحاكم في المستدرك، في كتاب البر والصلة، برقم (7310) (185/4). وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقال الذهبي: " صحيح". وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح (187/8) قال في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (516/5): "رواه النسائي في الكبرى من طريق الليث بن سعد، عن ابن الهاد به. وله شاهد من حديث ابن عمر، رواه البزار في مسنده، وأصله في صحيح مسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة". وهو الحديث الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم؟". صحيح مسلم رقم (54) (74/1).

و رواه أبو يعلي عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم". قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم. قال: "ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة". المسند برقم (4258) (250/7)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رجاله وثقوا، إلا أن ابن إسحاق مدلس". (187/8).

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (10548) (408/13)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الحجرِ، فتؤُذي الضّعِيف، إن وجدت خلوة فاستلمهُ، وإلا فاستقبِله فهللِّ وكبِّر" [1] وقال في الصلاة:" أقِيمُوا الصُّفُوف، وحاذُوا بين المناكِبِ، وسُدُّوا الخلل، ولِينُوا بِأيدِي إِخوانِكُم" قال أبو داود: "معنى: ولينوا بأيدي إخوانكم: إذا جاء رجل إلى الصف فذهب يدخل فيه، فينبغي أن يلين له كل رجل منكبيه، حتى يدخل في الصف [2]

وهكذا حال من يرحم الصغير فيدنيه ويقبله، أو يُربّتُ عليه ويكرمه، أو يلعب معه ويرفعه، وهذه أحوال تدل على صفاء قلوب أصحابها ونقاوتها، فاستحقت رحمة ربها ومولاها .ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل رسُولُ الله صلي الله عليه وسلم الحسن بن علِيٍّ وعِندهُ الأقرعُ بنُ حابِسٍ التّمِيمِيُّ جالِسًا، فقال الأقرعُ: إِنّ لِي عشرةً مِن الولدِ ما قبّلتُ مِنهُم أحدًا، فنظر إِليه رسُولُ الله صلي الله عليه وسلم ثمُّ قال: "من لا يرحمُ لا يرُحمُ" [3] وعندهما- أيضًا في رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابِيٌّ إِلى النّبِيّ صلي الله عليه وسلم فقال: تُقبِّلُون الصِّبيان؟ فما نُقبِّلُهُم، فقال النّبِيُّ صلي الله عليه وسلم: "أو أملِكُ لك أن نزع الله مِن قلبِك الرّحمة"، وعندهما- أيضًا -في رواية عن جرير بن ، عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسُولُ الله صلي الله عليه وسلم: " لا يرحمُ الله من لا يرحمُ النّاس"

([1]) أخرجه أحمد في المسند برقم (190) (321/1)، وعبد الرزاق في مصنفه، برقم (8910) (36/5)، والبيهقي في الكبرى، برقم (9261) (130/5). وقال الزرقاني: "مرسل جيد الإسناد".شرح الزرقاني على الموطأ (456/2). وقال الألباني: "صححه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي". مناسك الحج والعمرة، ص (21).

([2]) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، برقم (666) (178/1)، وأحمد في المسند برقم (5724) (17/10). قال الألباني: "إسناده صحيح". صحيح سنن أبي داود (243/3).

([3]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، برقم (5997) (7/8)، ومسلم في الصحيح كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، برقم (65) (1807/4).

ومثله ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: " من لم يرحم صغِيرنا، ويعرِف حقّ كبِيرِنا فليس مِنّا" [1] قال في عون المعبود:" (ويعرف) بالجزم (حق كبيرنا) أي بما يستحقه من التعظيم والتبجيل

(فليس منا) أي من أهل سنتنا وقيل: أي من خواصنا، وهو كناية عن التبرئة" [2]

وعنه– أيضًا –قال: قال رسُولُ الله صلي الله عليه وسلم: الرّاحِمُون يرحَمُهُمُ الرّحمنُ، ارحمُوا من فِي الأرضِ يرحمكُم من فِي السّماءِ، الرّحِمُ شُجنةٌ مِن الرّحمنِ، فمن وصلها وصلهُ الله، ومن قطعها قطعهُ الله" [3] قال في تحفة الأحوذي: "قوله: (الراحمون) لمن في الأرض من آدمي وحيوان محترم، بنحو شفقة وإحسان ومواساة،(يرحمهم الرحمن)أي يحسن إليهم، ويتفضل عليهم، والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة [4]، فإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله، لا ينافي كل منهما الرحمة، " ارحموا من في الأرض " ، قال الطيبي: أتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطير، انتهى .وفيه إشارة إلى أن إيراد (من) لتغليب ذوي العقول، لشرفهم على غيرهم، أو للمشاكلة المقابلة بقوله "يرحمكم من في السماء" وهو مجزوم، على جواب الأم، رأي الله سبحانه وتعالي، وقيل: المراد من سكن فيها وهم الملائكة، فإنهم يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) [غافر: 7] وقد روي بلفظ: "ارحمُوا أهل

([1]) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (4943) (286/4)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (1919) (321/4)، وقال: "حسن صحيح". وأحمد في المسند برقم (6733) (345/11). عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهم.

([2]) عون المعبود (196/13).

([3]) أخرجه أبو داوود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (4941) (285/4)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (1924) (323/4)، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح"، وأحمد في المسند برقم (6494) (33/11).

([4]) هذا قيد عزيز، تنضبط به كل أعمال الشرع، وخلق الرحمة منها، فليتنبه فإنه غاية في الأهمية.

الأرض يرحمكم أهل السماء"[1]، والمراد بأهل السماء الملائكة، ومعنى رحمتهم لأهل الأرض دعاؤهم لهم بالرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: (وَيَسْتَغْفِرُونَ) لمن آمن، (الرحم شجنة) بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة، وأصل الشجنة: عروق الشجر المشتبكة، والشجن بالتحريك واحد الشجون، وهي الأودية، ومنه قولهم: الحديث ذو شجون، أي يدخل بعضه في بعض، (من الرحمن) أي أخذ اسمها من هذا الاسم، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في السنن مرفوعاً: (أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي"[2]، والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها، فالقاطع لها منقطع من رحمة الله سبحانه وتعالى. وقال الإسماعيلي: "معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقة، وليس معناه: أنها من ذات الله تعالى الله عن ذلك، ذكره الحافظ في الفتح"[3].

تدمع العين، ويفيض الفؤاد رقة ورحمة، لموت حبيب، أو نصرة مؤمن، أو وجل من مكروه قد يقع عليه، فتغسل هذه الدموع القلب بماء الرحمة، وتذيب أدرانه بغسول الرأفة. ففي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فدفع إليه صبي لإحدى بناته، ونفسه تقعقع، كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: "هذه رحمة، جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[4].

([1]) أخرجه أحمد في المسند برقم (6494) (33/11)، والحاكم في المستدرك، برقم (7274) (175/4)، وقال: "وهذه الأحاديث كلها صحيحة، وإنما استقصيت في أسانيدها بذكر الصحابة رضي الله عنهم، لئلا يتوهم متوهم أن الشيخين رضي الله عنهما لم يهملا الأحاديث الصحيحة"، ووافقه الذهبي.

([2]) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، برقم (1907) (379/3).

([3]) (43/6).

([4]) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم (2586) (1999/4).

يرحم المؤمن أخاه، ويعطف عليه، ويتودد له، فيكتمل بهذا بناء الإيمان، ويقوي جدار الإسلام، ويظهر رحمته لأخيه عناية بأموره، واهتماماً بشؤونه، بل يظهر عليه العي والتعب لضعفه ومرضه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[1]. قال النووي: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم إلى آخره، هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه"[2].

ويالله كم هي شقاوة من نزعت الرحمة من قلبه، يشقى في الدنيا فتلازمه القسوة والجفاء، وفي الآخرة فيسلب رحمة الرحمن الرحيم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم الصادق، المصدوق صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الحجرة يقول: "لا تنزع الرحمة إلا من شقي"[3]. قال في عون المعبود: "(لا تنزع) بصيغة المجهول، أي لا تسلب الشفقة على خلق الله، ومنهم نفسه التي هي أولى بالشفقة والمرحمة عليها من غيرها، بل فائدة شفقته على غيره راجعه إليها: لقوله تعالى: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) [الإسراء: 7]، (إلا من شقي) أي كافر أو فاجر، يتعب في الدنيا، ويعاقب في العقبى"[4].

([1]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء: 110]، برقم (7377) (115/9)، ومسلم في الصحيح كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، برقم (932) (635/2).

([2]) شرح النووي على مسلم (139/16).

([3]) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (4942) (286/4)، والترمذي في السنن في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، برقم (1923) (323/4)، وقال: "هذا حديث حسن". وأحمد في المسند برقم (8001) (378/13).

([4]) (196/13).

وقال في تحفة الاحوذي: "(إلا من شقي) قال الطيبي: لأن الرحمة في الخلق رقة القلب، والرقة في القلب علامة الإيمان، فمن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا يرزق الرقة شقي. انتهى"[1].

قال بعض أهل العلم: "أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم أرحم الأمم في الدنيا، ولهذا سمي نبي الرحمة، فمن نزعت الرحمة من قلبه خشي عليه أن لا يكون من أمته صلى الله عليه وسلم"[2]. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة"[3].

فرحمة الخلق تستجلب بها رحمة رب الخلق، ورحمة العباد يستدل بها لرحمة رب العباد. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر: "ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر الله لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين، الذين يصرون على ما فعلوا، وهم يعلمون"[4].

والرحمة –كذلك– سبب عظيم لمغفرة الذنوب الكبائر، فضلاً عن الصغائر، بل رحمتك لمخلوقات الله كلها يكفر من السيئات، ويحط الخطيئات، حتى الحيوان والشجر. أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها فغفر لها". وفي لفظ عنه عند مسلم –أيضاً–، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما كلب يطيف بركية، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به"[5].

([1]) (42/6).

([2]) الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، لابن طولون الصالحي، ص (30).

([3]) التدمرية، ص (34).

([4]) أخرجه أحمد في المسند، برقم (6541) (99/11)، والبخاري في الأدب المفرد، برقم (380)، ص (151)، وصححه الألباني.

([5]) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (2245)، (1761/4).

ومثله في المعنى عن أبي هريرة رضي الله عنه –أيضاً–: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له"، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: "في كل كبد رطبة أجر"[1].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "في الحديث الحث على الإحسان إلى الناس؛ لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقي المسلم أعظم أجراً. واستدل به على جواز صدقة التطوع للمشركين، وينبغي أن يكون محله إذا لم يوجد هناك مسلم، فالمسلم أحق، وكذا إذا دار الأمر بين البهيمة والآدمي المحترم، واستويا في الحاجة، فالآدمي أحق"[2].

والعكس بالعكس، فمن شقاوة عبد أن يقسو على حيوان، فيجيعه حتى يموت، أو يسيء له بما لا يؤلف غالباً لمثله، وفي هذا المعنى حديث عظيم عن أسماء بنت أبي بكر: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الكسوف، فقال: "دنت مني النار، حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة، حسبت أنه قال: تخدشها هرة، قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً" وفي رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار"، قال: فقال: والله أعلم: "لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستيها، ولا أنت أرسلتها، فأكلت من خشاش الأرض"، قال الزهري: "ذلك، لئلا يتكل رجل، ولا ييأس رجل"[3].

([1]) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم (2363) (111/3)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (2244)، (1761/4).

([2]) أصول الإيمان، ص (50).

([3]) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، برقم (2364) (112/3).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "ومعنى قول الزهري أنه لما ذكر الحديث الأول خاف أن سامعه يتكل على ما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء، فضم إليه حديث الهرة الذي فيه من التخويف ضد ذلك، ليجتمع الخوف والرجاء"(1).

بل إن رحمة البهيمة عند ذبحها من علامات الإيمان، فعن معاوية ابن قرة، عن أبيه: أن رجلاً، قال: يا رسول الله، آخذ الشاة فأذبحها فأرحمها. قال: "والشاة فإن ترحمها يرحمك الله" مرتين(2).

ومثله حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته"(3).

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمة الله يوم القيامة"(4).

وفي السياق ذاته عن عبد الله بن عمر: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بحد الشفار، وأن يواري عن البهائم، وإذا ذبح أحدكم، فليجهز"(5).

ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، برقم (2242)، (1760/4).

(1) أصول الإيمان، ص (51).

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم (373)، ص (194)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (10556) (413/13)، وقال الألباني: "صحيح".

(3) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، برقم (1955)، (1548/3).

(4) أخرجه الطبراني في الكبير، برقم (7915) (234/8)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (10559) (415/13)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رجاله ثقات"، وقال الألباني: "حسن". صحيح الجامع (1074/2).

(5) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، برقم (3172) (1059/2)، وأحمد في المسند، برقم (5864) (105/10). قال الألباني: "صحيح السند". السلسلة الصحيحة (357/7).

وبهذا، فإن الأمة عرفت حقوق الإنسان والحيوان، وانضبط ذلك بضوابط الشرع، فالحيوان يرجو خيراً من المؤمن، والنبات وكل شيء –كذلك–، وهذا هدي المؤمنين، من لدن نزول الوحي وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكان عدي بن حاتم رضي الله عنه يفت الخبز للنمل، ويقول: "إنهن جارات، ولهن حق"[1]، وكان صالح بن كيسان يكسر لهرة له يطعمها، ثم يفت لحمامات له، أو لحمام له يطعمه[2].

ومن كرائم هذا الباب وأروعه، ما قد يسطره مؤمن رحيم، جافت الشقاوة قلبه وروحه، فيقدم نداء رحمة قلبه على نداء جسده وحاجته لأمس مقومات حياته، فيطعم وهو في أمس الحاجة للطعام، ويسقي وهو في أمس الحاجة للسقاء، ويتعب وهو في أمس حاجة للراحة، ويا لها من رحمة وسعت عباد الله الرحماء، ولعل نفحة من هذه النفحات تصادف قبولاً من عند الله، فتكون سبباً في سعادة لا شقاء بعدها أبداً.

فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار"[3].

([1]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (421/13)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (2190/4). وذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات بصيغة الجزم، (328/1).

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (421/13).

([3]) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، برقم (2630)، (2027/4).

يقول أحمد بن صالح: "رأيت الخير كله في رقة القلب والرحمة، وذلك قوله عز وجل: (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) [آل عمران: 159]. ورأيت الشر كله في اثنتين: في الفظاظة، وغلظ القلب، وذلك قول الله عز وجل: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران: 159])"[1].

([1]) أخرج الأثر البيهقي في شعب الإيمان، برقم (10547) (407/13).

المبحث الثاني

آثار الرحمة في زيادة الإيمان ونقصانه وتطبيقاتها

من الآثار الصحيحة

المطلب الأول

الإشارات النبوية

لزيادة الإيمان ونقصانه وعلاقته بالرحمة

معنى الإيمان ثبت بدلالة الكتاب والسنة، وأنه يزيد وينقص، ويقوي ويضعف. وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه لا شرعاً، ولا حساً، ولا واقعاً. فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه، والتحقق بها علماً وعملاً، وحالاً.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة. ويداوي ما قصر من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته. فتحقيق الإيمان وتقويته، يكون بمعرفة أسباب زيادة الإيمان، والقيام بها. وأما السعي في دفع ما ينافيه ويضاده، فيكون بمعرفة أسباب نقصه والحذر من الوقوع فيها[1].

([1]) ينظر: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص (68)، وزيادة الإيمان ونقصانه، عبد الرزاق العباد، ص (166).

روي عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم: "أن الإيمان يزيد وينقص"[1]، وعن عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه قال: "الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحانه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه"[2]. وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: "هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله عز وجل"[3]. ويروي عن علي رضي الله عنه: "إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة"[4]، اللمظة: مثل النكتة من البياض أو نحوها"[5].

قال مالك بن دينار: "الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبقلة، فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها، كذلك الإيمان ".وقال خيثمة بن عبد الرحمن:" الإيمان يسمن في الخصب، ويهزل في الجدب، فخصبه العمل الصالح، وجدبه الذنوب والمعاصي، وقيل لبعض السلف: يزداد الإيمان وينقص، قال: نعم، يزداد حتى يصير أمثال الجبال، وينقص حتى يصير أمثال الهباء"[6].

([1]) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب في الإيمان، برقم (74) (28/1)، وقال الألباني: "ضعيف جداً، لكن الآثار بهذا عن السلف مستفيضة في كتب السنة، وقد روي مرفوعاً ولا يصح". ضعيف سنن ابن ماجه (146/1).

([2]) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (55) (154/1)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (30327) (160/6).

([3]) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان، ص (41)، والآجري في الشريعة (584/2).

([4]) رواه البخاري في التاريخ الكبير (154/5)، وابن أبي شيبة في الإيمان، ص (19)، والخلال في السنة (56/5)، والبيهقي في شعب الإيمان ولفظه: قال علي رضي الله عنه: "أن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة في القلب، فكلما ازداد النفاق عظماً ازداد ذلك سواداً، فإذا استكمل النفاق أسود القلب كله، وايم الله، لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود". قال –يعني الراوي–: "واللمظة هي الذوقة، وهو أن يلمظ الإنسان بلسانه شيئاً يسيراً: أي يتذوقه، فكذلك القلب يدخل من الإيمان شيء يسير، ثم يتسع فيه فيكثر". وقال المحقق: رجاله ثقات. (114/1).

([5]) ينظر: الإيمان، ابن تيمية، ص (177)، ولسان العرب (461/7)، مادة (لمظ).

([6]) الإيمان، ص (178).

ولهذا، فإن أكمل المؤمنين إيماناً أوسعهم رحمة، فالرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الناس إيماناً، فكان أكثرهم رحمة، وأرفقهم بالخلق، ويليه من هذه الأمة صاحبه الصديق، فكان بشهادة الصادق له أنه أرحم الأمة بالأمة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"[1].

ولابن القيم كلام في غاية النفاسة، حيث يقول: "ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة، كما قال سبحانه وتعالى في أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح: 29]. وكان الصديق رضي الله عنه من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر"، وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: "وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمنا به، يعني النبي صلى الله عليه وسلم"[2]، فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً. فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم

([1]) أخره الترمذي في السنن، في أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، برقم (3790) (135/6)، وابن ماجه في السنن، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضائل زيد بن ثابت، برقم (154) (55/1)، وأحمد في المسند، برقم (12904) (525/20)، والحاكم في المستدرك، رقم (5784) (477/3)، وقال: "هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: "صحيح". صحيح الجامع، ص (216).

([2]) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، برقم (3904) (56/5)، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، برقم (2382) (1854/4).

بمصلحة العبد من نفسه، والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها، وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول، فكم من مكرم لنفسه بزعمه، وهو لها مهين، ومرفه لها، وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه. فقد بخسها حظها، وأضاع حقها، وعطل مصالحها، وباع نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة. فلو هدي ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب سبحانه وتعالى أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبد. كما قال عن عبده الخضر: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)) [الكهف: 65]، (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آَتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10)) [الكهف: 10][1].

وروى البزار عن أنس مرفوعاً: "أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساء القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا"، "ثلاث من كن فيه استوجب الثواب، واستكمل الإيمان: خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحلم يرد به جهل الجاهل"[2]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالخصال الأولى تدل على زيادة الإيمان وقوته، والأربعة الأخر تدل على ضعفه ونقصانه"[3].

([1]) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (173/2).
([2]) أخرجه البزار في المسند، برقم (6442، 6443) (87/13).
([3]) الإيمان، ص (179).

المطلب الثاني

دراسة تحليلية تطبيقية لحديث النبي صلى الله عليه وسلم:

"أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوباً، وأرق أفئدة"

الآثار الواردة فيها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم"[1].

وعن عقبة بن عمرو أبي مسعود رضي الله عنه، قال: أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده نحو اليمن فقال: "الإيمان يمان ها هنا، ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين، عند أصول أذناب الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة، ومضر"[2].

وفي رواية عنه عند البخاري، قال: "الإيمان ها هنا. وأشار بيده إلى اليمن، والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل، من حيث يطلع قرنا الشيطان ربيعة، ومضر".

وفي رواية أخرى، قال: "من ها هنا جاءت الفتن، نحو المشرق، والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر، عند أصول أذناب الإبل والبقر، في ربعية، ومضر"[3].

([1]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم (3310) (127/4)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (85) (72/1).

([2]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم (3310) (127/4)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (85) (72/1).

([3]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المناقب، باب (دون أن يسميه)، برقم (3499، 3498) (173/5).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان والحكمة يمانية". وفي لفظ مسلم: "جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية"[1].

وفي رواية أخرى عنده: "أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية".

وفي أخرى عنده –أيضاً–: "الإيمان يمان، والكفر قبل المشرق، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل والوبر".

وفي أخرى: "جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، وأضعف قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، السكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين، أهل الوبر، قبل مطلع الشمس".

وفي أخرى: "أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوباً، وأرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، راس الكفر قبل المشرق".

وفي أخرى: "والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أصحاب الشاء". وكل هذه روايات لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم رحمه الله.

وفي حديث جابر رضي الله عنه: "غلظ القلوب، والجفاء في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز"[2].

فهذه جملة من الروايات لحديث النبي صلى الله عليه وسلم جمعتها لتأملها وتحليلها، للوقوف على مسألة البحث، وهو جانب تطبيقي بعد أن أصلنا للجانب النظري، ولعل الإمام مسلماً بحسه العالي، وفقهه الراقي، تنبه

([1]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، برقم (4388) (173/5)، ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، برقم (82) (71/1).

([2]) أخرجها مسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه، بأرقام (81- 92).

لمنزلة رحمة أهل الإيمان، وتفاضلهم فيه، فبوب باباً في صحيحه في تفاضل أهل الإيمان فيه[1]، وجاء فيه بأحاديث أبي مسعود وأبي هريرة وجابر رضي الله عنهم، بما يعني أن هذه الأحاديث تتفق جميعاً في وضع مقياس دقيق، وميزان حساس للإيمان، وليس هو من عمل ظاهر من أعمال الجوارح من صلاة أو صوم أو ذكر، بل هو شيء يلامس شغاف القلب، ويخالط مهجته، عبر عنه ببعض أظهر مظاهره، وهي قسوة الطبع، وغلظ القلب، وهي مظاهر ملموسة لمن ضعف الإيمان في قلبه، وهذا ما يجعلنا نجزم بتلازم الإيمان مع رحمة القلب، ورقة الفؤاد، فالإيمان متأصل بمنطوق الوحي في أهل الرقة، وأصحاب الرأفة، ومنتفي بمفهومه عن أصحاب الغلظة، وأدعياء القسوة.

وهذه الروايات المباركات، جاءت ببيان مسألة بحثنا، بياناً شافياً؛ ولهذا أتيت بها على اختلاف ألفاظها، فبعضها أقرب من بعض في بيان شاهد للبحث؛ وقد استوقفتني كثيراً؛ لما لها من كبير وقع على أهل الإيمان، وبالغ أثر على نفسي، فكم كنت أتأمل فيها، ولكن دون تؤدة، أما وهي من صميم البحث، فإني أستعين الله على حسن فهمها، وبيان مرادها ولطائفها، ولبيان ذلك أفصل القول إلى مسائل:

المسألة الأولى:

شهادة النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان لأهل اليمن[2]: فهذه شهادة عظيمة لمن يستحقها، فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطى وساماً غالياً، بل لعله أغلى وسام يمنح لمخلوق، ألا وهو الإيمان، ولن أتوقف عند معاني الإيمان، بل سأقف على أهم مظاهره عند هؤلاء، فروايات الحديث الشريف نصت على سر هذه الشهادة العظيمة، بل أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك، أن سبب هذه الشهادة هو: لين قلوبهم، ورقة أفئدتهم، وهذا ما

(1) حتى وإن كانت تبويبات الصحيح ليست من صنيع الإمام نفسه، إلا أنه لا يبعد أبداً أن يكون هذا مراده، خصوصاً إذا أتت هذه التبويبات الرائقة، والعناوين الفائقة من جهبذ نحرير بالفقه والحديث كالإمام النووي، فهي نور على نور.

(2) اختلف في مفهوم أهل اليمن هنا، هل هم أهل اليمن، ممن سكن اليمن، أو هم الأنصار، أو هم أهل الحجاز، من أهل مكة والمدينة. ينظر: فتح الباري (99/8)، وشرح النووي على مسلم (32/2).

يفسر رواية: (وأضعف قلوباً)، فهم قوم رقيقة قلوبهم، لينة أفئدتهم، بما يجعلها ضعيفة قريبة لقبول الحق، ومحبة رحيمة لأهله، لا يصدر عنها إلا ما يتفق والرحمة والشفقة، والضعف لكل ما يحب، والنفرة من كل ما يبغض ويستهجن ويستقبح، قال الحافظ ابن حجر: "ومعنى الحديث وصف الذين جاؤوا بقوة الإيمان وكماله، ولا مفهوم له"[1]، وقال النووي: "إنه صلى الله عليه وسلم وصفهم بما يقضي بكمال إيمانهم، ورتب عليه الإيمان يمان، فكان ذلك إشارة للإيمان إلى من أتاه من أهل اليمن، لا إلى مكة والمدينة، ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره، وحمله على أهل اليمن حقيقة؛ لأن من اتصف بشيء، وقوي قيامه به، وتأكد اطلاعه منه، ينسب ذلك الشيء إليه، إشعاراً بتميزه به، وكامل حاله فيه، وهكذا كان حال أهل اليمن حينئذ، في الإيمان وحال الوافدين منه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي أعقاب موته كأويس القرني، وأبي مسلم الخولاني، وشبههما ممن سلم قلبه، وقوي إيمانه فكانت نسبة الإيمان إليهم لذلك؛ إشعاراً بكمال إيمانهم من غير أن يكون في ذلك نفي له عن غيرهم، فلا منافاة بينه وبين قوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان في أهل الحجاز"، ثم المراد بذلك الموجودون منهم حينئذ، لا كل أهل اليمن في كل زمان، فإن اللفظ لا يقتضيه، هذا هو الحق في ذلك، ونشكر الله سبحانه وتعالى على هدايتنا له، والله أعلم"[2].

ويا لها من لفتة كريمة، ونفيسة غالية، تلك التي علمنا إياها المعصوم صلى الله عليه وسلم، عندما أخبر بمقدمهم عليه، أرشد إلى وصفهم، وعرف بهم بما ينعتهم، فقال: "أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوباً، وأرق أفئدة"، فبين وأرشد لأهم ما بلغهم تلك المنزلة العظيمة من الإيمان، وأنها سبب استجابتهم وخشيتهم واستكانتهم، قال

([1]) فتح الباري (99/8).

([2]) شرح النووي على مسلم (33/2).

الحافظ ابن حجر: "وسبب الثناء على أهل اليمن إسراعهم إلى الإيمان"[1]، ويقول الإمام النووي: "وأما وصفها باللين والرفة والضعف، فمعناه أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة، التي وصف بها قلوب الآخرين"[2].

وهو إرشاد للمسلمين بلازم الوصف، وتحبيب لأهل الملة بكمال الخصال، التي فيها الرحمة والرقة والضعف، وهو تلازم وثيق، ومقصد من مقاصد الشريعة عميق، فمن عظم منه اللين والرحمة وجعلها في محلها المشروع، وبضوابطها المشروعة، عظم الإيمان في قلبه، فما رحمته ورأفته إلا لإيمانه بربه، وما إيمانه بربه إلا للين قلبه، ورقة طبعه ورحمته.

قال العيني: "قوله: (أضعف قلوباً) ذكر فيما مضى ألين قلوباً؛ لأن الضعف عبارة عن السلامة من الغلظ والشدة والقسوة، التي وصفت بها قلوب الآخرين، واللين عبارة عن الاستكانة، وسرعة الإيجاب، والتأثر بقوارع التذكير"[3]، ويقول الحافظ ابن حجر: "وقوله: (أرق أفئدة)، أي إن غشاء قلب أحدهم رقيق، وإذا رق الغشاء أسرع نفوذ الشيء إلى ما وراءه"، وقال –أيضاً–: "قال الخطابي: قوله: (هم أرق أفئدة، وألين قلوباً)؛ أي لأن الفؤاد غشاء القلب، فإذا رق نفذ القول، وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ بعد وصوله إلى داخل، وإذا كان القلب ليناً علق كل ما يصادفه"، وقال العيني –كذلك–: "فإذا صادف القلب شيئاً علق به، أي: إذا كان ليناً"[4].

بل إن ذلك انعكس على سلامة فطرهم، ونقاوة فهمهم، وصفاء قلوبهم، ففاضت بالحكمة، ونبعت بالخير، فصدقت لهجاتهم، ونبلت طباعهم، حتى نضحت الحكمة، فكل إناء بما فيه ينضح، وإذا أشربت الفقه

([1]) فتح الباري (352/6).
([2]) شرح النووي على مسلم (34/2).
([3]) عمدة القاري (32/18).
([4]) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي (352/6)، وفتح الباري، لابن حجر (100/8)، وعمدة القاري (32/18).

والعلم، وجدت قلوباً خصبة، ونفوساً زكية، وأرضاً متعطشة، فأورثت فهماً عميقاً، وعلماً دقيقاً، فسادت بين الأقران، وارتفعت بين الأصحاب والخلان. وهي ثمرة عظيمة من ثمار رحمة القلوب، ورقة الأفئدة، نسأل الله من فضله العميم.

المسألة الثانية:

شهادة النبي صلى الله عليه وسلم بالكفر على أهل المشرق أهل الغلظة والجفاء: وهي شهادة عظيمة – أيضاً–، قال صلى الله عليه وسلم: "الإيمان يمان، والكفر قبل المشرق"، وقال: "من ها هنا جاءت الفتن، نحو المشرق"، وقال في حديث جابر رضي الله عنه: "غلظ القلوب، والجفاء في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز"، وعبر بالمقابلة لبيان حال الكفر وأهله، بعد أن بين حال الإيمان وأهله، فأهل الإيمان أهل رقة ورأفة ورحمة، وأهل الكفر على النقيض، فهم أهل غلظة وجفوة وقسوة، فالجفاء في الطبع، أثر على استجابتها للحق، واستكانتها لأمر الرب سبحانه وتعالى، فقست قلوبهم، وعميت أبصارهم، وتكبرت على استجابتها، لما يصلحها من أمر الرسل عليهم السلام، فكل أهل الكفر والعصيان، غلاظ قلوبهم، شديد بأسهم، أنفت طباعهم عن ضعفها وانكسارها لمولاها، ورحمة خلقه من ضعفائهم، فكتب الله عليهم الشقاء بشقاوتهم وغلظتهم.

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر: "أما قوله صلى الله عليه وسلم: "رأس الكفر نحو المشرق"، فمعناه أن كفر أهل المشرق، وهم ذلك الوقت فارس وما وراءهم من العجم، وكلهم لا كتاب له ولا شريعة، ومن كان كذلك فكفره أشد الكفر؛ لأنه لا يقر بنبي ولا برسول، ولا كتاب له ولا شريعة، ولا يدين بدين يرضاه الله سبحانه

وتعالى"[1]. وقال –أيضاً-: "أما قوله: رأس الكفر نحو المشرق فهو أن أكثر الكفر وأكبره كان هناك"[2]. وهذا أسلوب منفر من حالهم، مرغب في البعد عن أوصاف الغلظة والجفاء، فالكفر والغلظة مقترنان.

المسألة الثالثة:

الإيمان وأهل الغنم: ومن أخص مسائل الباب وأدقها مسألة الإيمان وعلاقته بأهل الغنم خاصة، وما يمتهنه الإنسان عامة، أو ما يحيط به من بيئته، فهل لهذا أثر على الإيمان؟ يأتي الجواب منه صلى الله عليه وسلم فيقول في الحديث: "السكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين، أهل الوبر، قبل مطلع الشمس"، ويقول: "والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أصحاب الشاء".

فأهل الإيمان أهل سكينة ووقار، وهكذا أهل الغنم على ما يتعلمونه من صبر وتؤدة وتواضع ورقة، يقول الحافظ ابن حجر: "قوله: (السكينة في أهل الغنم) أي الوقار أو الرحمة أو الطمأنينة، مأخوذ من سكون القلب"، وقال –أيضاً-: "والسكينة تطلق على الطمأنينة والسكون والوقار والتواضع"[3].

وعلى العكس تماماً في أهل الوبر، ففيهم من الخيلاء والكبر والفخر ما يجعلهم قساة أجلافاً، يقول النووي: "وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (الفخر والخيلاء)، فالفخر هو الافتخار، وعد المآثر القديمة تعظيماً، والخيلاء الكبر واحتقار الناس، وأما قوله: (في أهل الخيل والإبل الفدادين أهل الوبر)، فالوبر وأن كان من الإبل

([1]) الاستذكار (499/8).
([2]) التمهيد (142/18).
([3]) فتح الباري (133/1)، (352/6).

دون الخيل، فلا يمتنع أن يكون قد وصفهم بكونهم جامعين بين الخيل والإبل والوبر، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "والسكينة في أهل الغنم"، فالسكينة الطمأنينة، والسكون على خلاف ما ذكره من صفة الفدادين"[1].

ويقول ابن حجر: "وقال أبو العباس: الفدادون هم الرعاة والجمالون، وقال الخطابي: إنما ذم هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم، وذلك يفضي إلى قساوة القلب، قوله: (أهل الوبر) بفتح الواو والموحدة، أي ليسوا من أهل المدر؛ لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر، وعن أهل البادية بأهل الوبر، واستشكل بعضهم ذكر الوبر بعد ذكر الخيل، وقال: إن الخيل لا وبر لها، ولا إشكال فيه؛ لأن المراد ما بينته"[2].

ومن هنا فإن الله هيأ أنبياءه للرسالة، ووطأهم للدعوة إليها، فقدر لهم بحكمته رعي الغنم، ومخالطة الشاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: "نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[3]. قال الحافظ ابن حجر: "قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم؛ وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها؛ ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع

([1]) شرح النووي على مسلم (34/2).
([2]) فتح الباري (352/6).
([3]) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، برقم (2262) (88/3).

انقياداً من غيرها، وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء"[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الفخر والخيلاء في أهل الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعث موسى عليه السلام وهو يرعى غنماً على أهله، وبعثت أنا وأنا أرعى غنماً لأهلي بجياد"[2].

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر: "وأمل أهل الخيل والإبل فهم الأعراب أهل الصحراء، وفيهم التكبر والتجبر والخيلاء، وهي الإعجاب والفخر والتبختر، وأما أهل الغنم فهم أهل سكينة وقلة أذى، وقلة فخر وخيلاء، على ما قال النبي صلى الله عليه وسلم فهو الصادق في خبره صلى الله عليه وسلم، وأما قوله: الفدادين فكان مالك يقول: الفدادون هم أهل الجفاء، وهم أهل الخيل والوبر، يريد بالوبر الإبل، وهو كما قال مالك، قال أبو عبيد: هم الفدادون بالتشديد، وهم الرجال، والواحد فداد، وقال الأصمعي: هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم وما يعالجون منها"[3].

([1]) فتح الباري (441/4).
([2]) أخرجه أحمد في المسند برقم (11918) (409/18). وصححه الشيخ الألباني. السلسلة الصحيحة (500/7).
([3]) التمهيد (143/18).

ويقول ابن بطال: "خص الغنم من بين سائر الأشياء حضاً على التواضع، وتنبيهاً على إيثار الخمول وترك الاستعلاء والظهور، وقد رعاها الأنبياء والصالحون، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، وأخبر أن السكينة في أهل الغنم"[1].

وقال الباجي: "وقوله صلى الله عليه وسلم: "والسكينة في أهل الغنم"، يحتمل –والله أعلم– أن يكون ذلك على وجه التعرف بهم، ويحتمل أن يكون ذلك سبب سكينتهم لضعفها، وقلة استعانة أهلها بها في محاربة عدو ومناوأته، فرغبوا في المسالمة، وتخلقوا بالسكينة والوقار، والكف عن الأذى"[2].

ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى البركة والنماء في الغنم، والسكينة والوقار في أهلها، فهم أهل طمأنينة بالإيمان، ووقار ورفعة وتواضع بصفاته، ومن ذلك الحديث: "الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة"[3].

المسألة الرابعة:

الإيمان وعلاقته برقة القلب: بعد التطواف مع ألفاظ الحديث وحكمه وأحكامه، لابد من تمعيك الذهن، وتمحيض النظر، وتمحيص القول، لمسألة الحديث الأصيلة، وهي سبب اختياري لهذا الحديث العظيم، والإطالة في سرد رواياته وطرقه، وتأمل أقوال العلماء والشراح، لعلي أظفر بضالتي، وإذ بها في مرمى سهمي، سهلة المنال، غضة طرية، فسبب ورود الحديث يفتح بابها، ويمهد طريقها؛ إذ جاء وصف صنف من المؤمنين، بأخص خصالهم، مادحاً لها، معظماً لشأنها، حاثاً على لزومها، والاهتداء بها.

([1]) شرح صحيح البخاري لابن بطال (71/1).

([2]) المنتقى شرح الموطأ (290/7).

([3]) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب التجارات، باب اتخاذ الماشية، برقم (2305) (773/2)، عن عروة البارقي. وصححه الشيخ الألباني. صحيح الجامع الصغير (535/1).

فالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم جلى أوصاف أهل اليمن عند مقدمهم عليه، فهم أهل إيمان وفقه وحكمة، يشتركون في شيء واحد، وهو القاسم المشترك الذي تبوؤا به هذه المكانة العلية، وهو الرحمة العظيمة، التي حوت قلوبهم، فنبلت بها طباعهم، ورقت لها أفئدتهم، وهذا بيت قصيدنا، فعظم الرحمة في قلوبهم، هو ما جعلهم يتميزون بالرقة واللين، وجاء الوحي من السماء بتصديق هذا وبيان فضله، وإثبات درجة عالية من الإيمان والفقه والحكمة، ولا شك أن رأفة قلوبهم تجعل منهم محطاً لشفقتهم بالخلق، ورحمتهم بالعباد، وهكذا تتحقق فيهم سبل الهداية من ناحية علاقتهم بالخالق وهي الأصل، وعلاقتهم بالمخلوق وهي فرع عنها، فكان الأصل وفرعه منبثقاً عم وقر في القلب من الرحمة، بل يعظم ثبوت الإيمان بالله سبحانه وتعالى بقدر ما يقر في القلب من الرحمة والرأفة.

هذا أولاً –أعني من حيث سبب ورود الحديث–، أما من جهة أخرى: فإنه صلى الله عليه وسلم فرق بين أهل الإيمان والكفر، فحدد أقواماً بعينهم من هؤلاء وهؤلاء، ولكن البحث يتجه تجاه الأوصاف لكل منهما، فوصف أهل الإيمان بما يقتضي الرحمة والرأفة، فهم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، فكل أفعالهم وأقوالهم تصدر عن رحمة ورأفة، إذا عرض عليهم أمر الله أخذوه بجانب الاستكانة والاستجابة، وإذا عرضت عليهم مصالح الخلق وأحوالهم صدرت تصرفاتهم بالرحمة والرأفة، فإذا رأوا يتيماً مسحوا على رأسه، وإذا رأوا أرملة أو مسكيناً جبروا كسره، وسدوا عوزه، خمم الله قلوبهم، وكساها بالرحمة والشفقة، وحرم عليها الغل والحقد والحسد، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: "كل مخموم القلب، صدوق اللسان"، قالوا: صدوق اللسان، نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: "هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد"[1].

([1]) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، برقم (4216) (1409/2). وصححه الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة (632/2).

وإذا تشربت القلوب غلظة وقسوة صدرت الأفعال والأقوال بما يوجب النفرة من الحق، والجفوة للخلق، بل إن ذلك سبب للطغيان والكبر والغطرسة المفضية للتنكل الحق، والفظاظة مع الخلق، كما في حديث حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل، جواظ مستكبر". وفي رواية لمسلم: "ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ زنيم متكبر"[1]. وفي رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عند أحمد: "إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر، جماع مناع، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون"[2]، يقول النووي: (كل ضعيف متضعف) ضبطوا قوله (متضعف) بفتح العين وكسرها المشهور الفتح، ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه؛ لضعف حاله في الدنيا، يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية الكسر، فمعناها: متواضع متذلل خامل، واضع من نفسه، قال القاضي: وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان، والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء، كما أن معظم أهل النار القسم الآخر، وليس المراد الاستيعاب في الطرفين"[3].

وقال النووي –أيضاً–: "قوله صلى الله عليه وسلم في أهل النار: (كل عتل جواظ مستكبر)، وفي رواية (كل جواز زنيم متكبر)، أما العتل بضم العين والتاء، فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي: الفظ الغليظ، وأما الجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة، فهو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم، المختال في

(1) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب تفسير القرآن، باب: (عتل بعد ذلك زنيم (القلم: 13)، برقم (4388) (159/6)، ومسلم في الصحيح كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (2853) (2190/4).
(2) أخرجه أحمد في المسند برقم (7010) (585/11). وصححه الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة (321/4).
(3) شرح النووي على مسلم (186/17).

مشيته، وقيل: القصير البطين، وقيل: الفاخر بالخاء، وأما الزنيم، فهو الدعي في النسب، الملصق بالقوم وليس منهم، شبه بزنمة الشاة، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر، وهو: بطر الحق وغمط الناس"[1].

ومن ناحية أخرى فإن مهنة الإنسان تنطبع بداخله، فتؤثر في طبعه، فأهل الحضر، ومن يعملون برعي الغنم، يكتسبون رقة في الطبع، ولين في الانفعالات، وسرعة في الاستجابة للحق، ومحبة أهله، وأهل البدو ورعي الإبل فيهم من طبعها، من الجفاء والغلظة، فهم أهل قسوة وغلظة، وأبعد عن السكينة والوقار، أقرب من الكبر والأنفة والاستعلاء، وقمن بقوم هذا وصفهم الاعتراض على الأوامر، والتنكل للزواجر، وهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم: "والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أصحاب الشاء".

وعلى هذا فإن علاقة الإيمان بالرحمة علاقة طردية، بمعنى أن الرحمة إذا ملئت القلب انعكس على إيمانه إيجاباً، وهذا بأعلى المنازل، وإذا ما نزعت الرحمة من قلب فإن الإيمان ينزع عنه –كذلك–، وهذا بأوضع المنازل وأشقاها، وأحطها وأدناها، وهو مشاهد لمن وفقه الله سبحانه وتعالى، أسأل الله بأسمائه وصفاته أن يوفقنا لرضاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

([1]) المرجع نفسه (187/17).

الخاتمة

أهم النتائج:

- رسالة الله رحمة للعالمين، وأرحم عباد الله بعباد الله هم رسل الله عليهم السلام.
- الصحابة رضي الله عنهم حملوا لواء الرسالة، فأكسبهم الله حظاً عظيماً من صفاتها، فكانوا أرحم عباد الله بعد رسل الله عليهم السلام.
- يتلازم الإيمان والرحمة تلازماً حقيقياً، مثلت السنة النبوية الشريفة ذلك بياناً شافياً.
- زيادة الإيمان ونقصانه عقيدة من عقائد المسلمين الصحيحة، دلت السنة النبوية المطهرة على ارتباطها برحمة القلب.
- غلظة الطبع، وقسوة القلب، من صفات أهل الكفر والزيغ، ورقة الطبع، ورأفة القلب من صفات أهل الإيمان.
- العاقبة العظمى في الدنيا للرحماء، وفي الآخرة للرحماء، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء.
- ما نزل خير، ولا عم فضل، إلا بالرحمة.
- الرحمة رسالة الله سبحانه وتعالى للأولين والآخرين.

أهم التوصيات:

- الدعوة للتفكر في نصوص السنة النبوية المطهرة، والتأمل في معانيها، وفتح المجال للبحث العلمي المنهج.
- فتح المجال لبحوث السنة التحليلية، وتشجيع الباحثين لطرق مواضيعها.
- التركيز على الجانب الإعلامي، وإبراز محاسن السنة النبوية المطهرة في مجالاتها المختلفة.
- الدفاع عن دور الإسلام في إصلاح البشرية، وإشغال العامة بمثل هذه المواضيع الهادفة.

- مضاعفة جهود المؤسسات الدعوية والعلمية، والصروح العلمية كالجامعات، وكلياتها المتخصصة في علوم الشريعة في إبراز رسالة الإسلام بسماحته ورحمته.
- جانب الرحمة من أكثر ما يستعمله الغرب لإبراز محاسن حضارته ونهضته، وهو في الحقيقة غشاء رقيق تنكشف عورته أمام نور الإسلام الساطع، فعلى أهله مهمة بالغة الأهمية، غاية في النبل، وهي إبراز أصالة ديننا الحنيف في الرحمة بالعالمين، فأصل رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم الرحمة للعالمين أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

1. الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الصالحي (ت953هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ، 1995م.

2. أصول الإيمان، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (ت1206هـ)، تحقيق: باسم فيصل الجوابرة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة: الخامسة، 1420هـ.

3. الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت728هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، الطبعة: الخامسة، 1416هـ، 1996م.

4. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت463هـ)، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ.

5. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة: الأولى 1416هـ، 1996م.

6. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت458هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة: الأولى، 1423هـ، 2003م.

7. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

8. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

9. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت852هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

10. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن رجب السلامي، البغدادي (ت795هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، 1417هـ، 1996م.

11. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت728هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة النبوية، 1416هـ، 1995م.

12. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت241هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1416هـ، 1995م.

13. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي (ت676هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، 1392هـ.